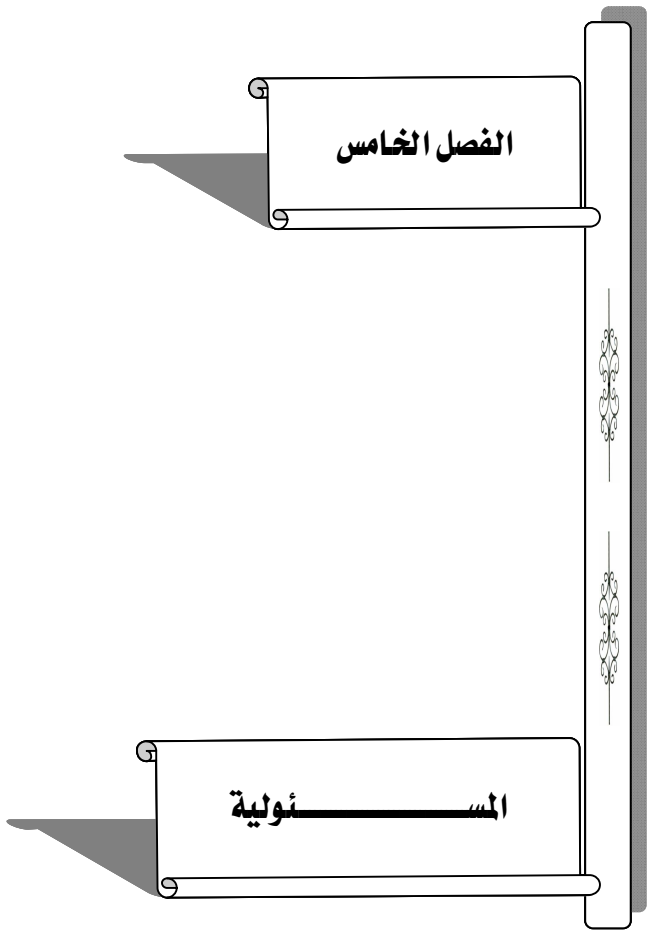
الفصل الخامس
المســــــــــــئولية

المســــــــــئولية

أنواع المسئولية

ترتبط أفكار : الإلزام الأخلاقي ، والرقابة الإلهية ، وربط الحُكْم بعلّته – التي سبق ذكرها – بفكرتي : المسئولية ، والجزاء ، وكل هذه الأفكار متضامنة لا تنفصل .

والمسئولية في الإسلام ثلاثة أنواع : المسئولية الدينية ، والمسئولية الاجتماعية ، والمسئولية الأخلاقية الخالصة ولقد ذكر القرآن الكريم هذه المسئوليات في آية واحدة بنفس الترتيب ﴿يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَخُونُواْ الله والرسول وَتَخُونُواْ أماناتكم﴾ [الأنفال : ٢٧] .

هل هناك تعارض بين المسئولية الوطنية والمسئولية الدينية؟

إن المسلم عليه الالتزام بالمسئولية الوطنية فيطع ولي الأمر والدستور والقانون ويراعي العرف والتقاليد ويحترم جميع المواطنين الصالحين ، لما يترتب على مخالفة ذلك من انتشار المفاسد، وإثارة الفتن والقلاقل، واختلال الأمن، وتضيع الحقوق، وترويع الناس، وانتهاك الحُرمات والأعراض، وتقويض أركان الدولة ومقوماتها ، ولا يتعارض هذا مع المسئولية الدينية بل إن تعاليم الدين تأمر به فقد دلَّ الكتاب والسنة على وجوب طاعة ولي الأمر والالتزام بالدستور الذي يحكم به والقوانين التي

يطبقها ما لم يتعارض ذلك كله بنصوص الدين قطعية الثبوت والدلالة وما اتفق عليه العلماء من المعلوم بالدين بالضرورة يقول الله تعالى : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] .

ويقول النبي ﷺ " ألا مَن وليَ عليَهِ والٍ فرآهُ يأتي شَيئًا مِن معصيةِ اللَّهِ فليَكْرَهْ ما يَأتي مِن معصيةِ اللَّهِ ولا ينزِعَنَّ يدًا مِن طاعةٍ "

[صحيح مسلم]

أما بالنسبة للعرف أو العادة فإن الله تعالى يوجه نبيه إلى الأمر به يقول تعالى ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾

[الأعراف:١٩٩]

ويقول رشيد رضا في تفسير الآية : " إن العرف أو المعروف أحد هذه الأركان للآداب الدينية والتشريع الإسلامي ، وهو مبني على اعتبار عادات الأمة الحسنة ، وما تتواطأ عليه من الأمور النافعة في مصالحها " .

والأصل في هذا ، أنه لا يُحَرَّم على الناس من العادات والمعاملات التي يحتاجون إليها ، إلا ما دلَّ المقطوع بحرمته لا المختلف عليه فإن فيه سعة .

ولا يوجد من حيث المبدأ ولا يمكن أن يوجد في الأخلاق الإسلامية أي تصادم بين واجب المواطن الصالح وواجب المسلم الصالح فكلا الواجبين تابعان لنفس القانون النابع من مصدر تشريعي واحد إلا أنه في مواجهة أي تشدد من الرؤساء عن هوى أو نزوة فإن القاعدة غاية في البساطة " لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " [رواه أحمد بسند صحيح] وروى الشيخان " لا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ " .

الإرهاب والمسئولية الوطنية

ورغم أن الإسلام حرَّم الإفساد في الأرض والاعتداء على النفس بغير حق وكذا الأعراض والممتلكات العامة والخاصة ، ورغم أن حفظ النفس، والمال ، والعقل من الكليات الخمس التي اتفقت كل الشرائع السماوية على جوب حفظها ، وحفظ النفس الذي جاءت الشرائع به يكون بتحريم قتلها أو إيذائها ، وحفظ المال يكون بتحريم أكله بالباطل وإتلافه ، وحفظ العقل يكون بتحريم إفساده بالمسكرات والمخدرات والمفترات ، والشائعات المغرضة ، والافتراءات الكاذبة.

وبرغم نصوص الدستور ، والقانون التي تجرِّم الإخلال بالنظام العام أو تعريض سلامة المجتمع وأمنه للخطر ، وإيذاء الأشخاص أو إلقاء الرعب بينهم أو تعريض حياتهم أو حرياتهم أو أمنهم للخطر ، أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بالاتصالات أو المواصلات أو بالأموال أو بالمباني أو بالأملاك العامة أو الخاصة ... والترويج بالقول أو الكتابة أو بأية طريقة أخرى للأغراض المذكورة .

برغم كل هذا إلا أن أمة الإسلام قد ابتليت بجماعات إرهابية وتنظيمات إجرامية ترى اختلافها مع بعض مسئولي الدولة مبرراً لهدم أركان الدولة وترويع الآمنين ، والإضرار بمصالح الناس العامة والخاصة فيفجرون المنشآت العامة ، ويدمرون مرافق الدولة ، ويستهدفون رجال الجيش والشرطة والقضاء وغيرهم بالقتل ، وينشرون الإشاعات المغرضة التي تبلبل الأفكار وتنتشر الفزع والخوف ، وتثير الفتن ، ... وهذا يتعارض مع المسئولية الوطنية التي لا يمكن بحال أن

تتعارض مع المسئولية الدينية كما بينا فما يفعله هؤلاء الإرهابيون الذين يتمسَّحون بالدين ، والدين منهم براء ، لا يجوز شرعاً ولا قانوناً ولا عقلاً ولا عُرْفاً ، بل فيه مخالفة لله ورسوله، وللدستور والقانون ، وللعقل الصحيح ، والعرف السائد ، ولأُلي الأمر الواجب طاعتهم .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩] .

فما يرتكبه هؤلاء المجرمون معصية صريحة لله ورسوله ، وخروج على ولي الأمر الذي انتخبه الناس بحرية كاملة وإن ارتضى غالبية الناس حكمه.

وسنعود للحديث عن الإرهاب في الفصل التالي عند حديثنا عن الحدود .

شروط المسئولية الأخلاقية

ونبدأ بدراسة شروط المسئولية الأخلاقية والدينية التي ترددت في كثير من الآيات القرآنية ، وتؤكد أولاً على الطابع الشمولي لمبدأ المسئولية الذي وسَّع القرآن نطاقه حتى شمل جميع المخلوقات العاقلة، دون تفرقة بين عقل إنساني ، وعقل " فوق إنساني " وبين عامة الناس وأشدهم ورعاً ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر : ٩٢، ٩٣]

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف : ٦] ولا شك أن المقصود هنا هي المسئولية أمام الله تعالى يوم القيامة .

وإن الحساب يوم القيامة لن يكون على جميع الأعمال الظاهرة والخفية فحسب ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ الله﴾ [البقرة : ٢٨٤] وإنما على جملة استخداماتنا لِمَلَكَاتنا ، ولكلٍّ خير فطري أو مكتسب ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا ﴾ [الإسراء : ٣٦] . ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم﴾ [التكاثر : ٨] ويقول النبي ﷺ : " لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أفنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفيمَ أنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسمِهِ فِيمَ أبلاهُ ؟ " [صحيح الترمذي] وتلخيص هذا كله نجده في قول النبي ﷺ " كلكم رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : وَالأمِيرُ رَاعٍ ، والرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أهْلِ بَيتِهِ ، وَالمَرْأةُ رَاعِيةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجها وَوَلَدِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

فكل فرد في مجاله مسئول عن حسن سير الأمور التي وكلت إليه .

بيد أن المسئولية الأخلاقية والدينية ، لكي تكون شاملة ، لها شروط :

أ- الطابع الشخصي للمسئولية : المسئولية الأخلاقية والدينية مسئولية شخصية بحتة . وسوف نكتفي ببعض الآيات القرآنية التي تقرر هذا المبدأ الأساسي ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت﴾ [البقرة : ٢٨٦] ﴿مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى﴾ [الإسراء : ١٥] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان : ٣٣]

يتضح من هذا أنه لا يمكن أن يحدث في مجال الثواب والعقاب أي تحويل أو تمديد أو مشاركة أو التباس ، حتى بين الآباء والأبناء . فضلاً عن الأجداد الأولين ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١] وهكذا بجرة قلم تمَّ استبعاد قضية خطيئة آدم . فالقرآن يرفض امتدادها على الناس أجمعين، ولا يرى أنها ذات طابع دنيوي كما تصفها العقيدة المسيحية.

كيف يحمِّل العصاة ذنوبا مع ذنوبهم . والمؤمنون تلحق بهم ذريتهم ؟

يذكر القرآن الكريم حالتين كأنهما خرجتا على مبدأ المسئولية الفردية . فقد قال تعالى عن المذنبين : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت : ١٣] كما صرح بأن ذرية المؤمنين سوف تعامل معاملة آبائهم إذا اتبعوهم في طريق الإيمان ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور : ٢١] مما قد يوهم أن الثواب والعقاب لن يكونا تبعاً لجهد الفرد وحده ، وإنما قد يتأثر بعمل الآخرين .

نبدأ باستبعاد فكرة تحويل كامل يَحْرِم الفرد الرئيسي من ثواب جهده ، أو يفلت به من عقاب سيئاته . هيهات أن يحدث ذلك . فإن ذات النصوص التي ذكرت الحالتين تؤكد هذه الحقيقة ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت : ١٢] هي إذن إضافة من الثواب أو العقاب تأتي – فيما يبدو – من الخارج ، زيادة على جزاء العمل الفردي . إلا أنه بعد هذا التوضيح لا يزال هناك

ما يوهم بالتعارض مع النصوص التي تنفي أن ينسب للإنسان ما ليس من عمله .

توضح دراسة الحالة الأولى طريقة الإسلام في تصور المسئولية الفردية . فالإنسان ليس مسئولاً فقط عن الأعمال التي يؤديها بالتدخل الإيجابي المباشر ، وليس فقط عن القدوة التي تنتشر بين الناس بسبب مهابة صاحبها ، إنما عن كل مبادرة – حسنة أو سيئة – يكون لها آثار تتجاوز حدودها أو نتائجها المباشرة ، وفي الحديث " لَيْسَ مِنْ نَفْس تُقْتَلُ ظُلْماً إلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأوْلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ، لأَنَّهُ كَانَ أوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتلَ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] بل هناك أبعد من ذلك فنحن مسئولون أيضاً بصورة ما عن تصرفات غيرنا حين نتركهم يسيئون دون أن نتدخل بالوسائل المشروعة لمنعهم ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

[المائدة : ٧٨، ٧٩]

فالمسئولية الفردية هي من الامتداد حتى تكاد تندمج مع المسئولية الجماعية ، ولكنها ليست هي .

وليس هذا كل شيء فالنتائج البعيدة التي تحدثها أعمالنا الواعية في المجتمع تدخل في الحساب سلباً أو إيجاباً ، حتى بعد موت صاحبها " إِذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ " [رواه مسلم] .

أما الحالة الثانية والتي يمثلها قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

[الطور : ٢١] فلها تفسيرات عديدة تحاول أن تسوغ حكم الآية الذي يسوي في الواقع بين طرفين غير متساويين في الحق . ونسأل عما إذا كان في الآية الكريمة ما يفيد مثل هذه المساواة . إذ أن كلمة " ألحق " تفسر بمعنى " شبَّه " أو بمعنى " اتبع وضَمَّ " وهناك ما يدعو إلى الأخذ بالمعنى الثاني .

فإننا نجد آيات أخرى تعالج حالات شبيهة ولا تشير إلى معاملة على قدم المساواة وإنما مجرد مشاركة بلفظ " مع " ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. وفي الحديث " أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] و " المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] إنها حالة خاصة في إطار المفهوم العام ، إنها " الحب في الله " . وهي حالة الأبناء الذين لم يكتفوا ببنوتهم الطبيعية ، فأضافوا إليها " بنوة روحية " فلماذا لا يتحقق مثلهم الأعلى باجتماعهم في الله مع من كان قدوة لهم في الدنيا ، واتبعوه بدرجات متفاوتة في الكمال ؟ وإلا كان فصلهم إنكاراً لقيمة هذا الحب علماً بان هذا الاجتماع لا يمنع مطلقاً من وجود تدرج في الجزاء كالقطار الذي يقل طوائف مختلفة من المسافرين ، ومع هذا فالركاب فيها درجات : أولى ، وثانية ، وثالثة .

وهكذا لا تتعارض الآية مع المبدأ العام مبدأ المسئولية الفردية التي تظل فردية بكل معنى الفردية .

المفهوم الإسلامي للشفاعة يوم القيامة

ومن المفاهيم التي يتناقض فَهْمها الخاطئ مع المسئولية الفردية يوم القيامة مفهوم الشفاعة . فكثير من المسلمين يفهمون الشفاعة خطأ

فيظنون أنهم ماداموا من أمة محمد فإنهم حتماً سيدخلون الجنة ولن يعرضون على النار ولن يدخلوها وإن قتلوا وزنوا وسرقوا وارتكبوا كبائر الإثم والفواحش بفضل شفاعة النبي ﷺ لن يدخل مسلم النار " فأمة محمد بخير " ، " واعمل اللي يعجبك وصلِّ على اللي يشفع فيك " !

وقد يثار اعتراض عند محاولة فهم " الشفاعة " على هذا النحو بحسب ما نراه في حياتنا الدنيا ، وهذا مخالف للمفهوم الإسلامي للشفاعة ؛ فالشفاعة لا تقبل في الكافر ولا فيمن غضب الله عليه .

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر : ١٨] .

فالذين ظلموا أنفسهم فارتكبوا المعاصي والآثام وخالفوا شريعة الله فلن تنفعهم شفاعة الشافعين ولن يسمع فيهم شفاعة ولا يقبل منهم فداء حتى يأخذوا جزاءهم .

﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة : ٤٨] .

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٨] .

حتى إذا أراد الله تعالى رحمة من أراد من أهل النّار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السّجود ، فقد حرّم الله على النّار أن تأكل أثر السّجود ، فيخرجون من النّار وقد احترقوا فيصبّ عليهم ماء الحياة فينبتون.

وجاء في الحديث الصحيح " أمَّا أهلُ النَّارِ الَّذينَ هم أهلُها فإنَّهم لا يموتونَ فيها ولا يحيَوْنَ ولكِنْ ناسٌ أصابَتْهم النَّارُ بذُنوبِهم أو قال : بخَطاياهم حتَّى إذا كانوا فَحْمًا أُذِن في الشَّفاعةِ فجِيء بهم ضَبائرَ

ضَبائرَ (جماعات) فبُثُّوا على أهلِ الجنَّةِ ثمَّ قيل : يا أهلَ الجنَّةِ أفيضوا عليهم قال : فينبُتونَ نباتَ الحِبَّةِ تكونُ في حَميلِ السَّيلِ "
[رواه مسلم وأحمد]

فالشفاعة يوم القيامة لمن يستحقون الشفاعة من أهل الخلاص وهي مقيدة بأمرين:

أولاً : إذن الله تعالى للشافع بأن يشفع لقوله تعالى :

﴿مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ : ٢٣] .

﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً﴾
[طه : ١٠٩]

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس : ٣] .

ثانياً : رضا الله تعالى عن المشفوع له لقوله تعالى : ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾
[الزمر : ٤٤]

إذن الشفاعة بهذا المعنى تُسْبِغ شَرَفاً مزدوجاً على المدافع والمدافع ، ولكن هيهات أن تكون القضية دائماً موفقة إذ قد إذ قد يخطئ الشفيع في الوقائع فيسحب عندئذ شفاعته ، فيقال للرسول " فَيُقَالُ إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي " [البخاري] فإذا ما

تكللت جهود الشفاعة بالنجاح فذلك لأن المشفع لهم يستحقون ثواب الله طبقاً لشرائعه ، وتكون الشفاعة فرصة لتتجلى الإرادة الإلهية .

الأساس القانوني للمسئولية

يعلمنا القرآن الكريم أن أحداً لن يحاسب على أفعاله ما لم يكن قد علم بالأحكام مُسْبَقاً ويكون الإعلام بطريقين مختلفتين : طريق داخلي (الروح ، والقلب ، والعقل) أو الفطرة ، وطريق خارجي رسل الله وكتبه المقدسة .

فقواعد القانون الأخلاقي ، في أكثر صورها شمولاً ، مُسَجَّلة في الفطرة الإنسانية ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم : ٣٠]

ولكي نتعرف على هذه الفطرة ، فما علينا سوى الاهتداء بأرواحنا التي هي نفخة من روح الله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص : ٧٢] واستشارة عقولنا المبصرة المنزهة عن الهوى والعمى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور﴾ [الحج : ٤٦] ، واستفتاء قلوبنا السليمة من المرض ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء : ٨٩] .

فهل هذه المعرفة تكفي لتأكيد مسئوليتنا أمام الله تعالى ؟

أكثر مدارس أهل السنة يقرِّرُون أننا لسنا مسئولين أمام الله ولا حتى عن واجباتنا الأساسية إلا في حدود تعليم الله لنا بطريقة خاصة وإيجابية

ويستندون في ذلك إلى نصوص القرآن . ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٥] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص:٥٩] فقد أوجب الله تعالى على نفسه أن يُعْلِم الناس قبل أن يحملهم مسئوليتهم ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] لأن الله تعالى يرى أن من الظلم تعذيب القرى التي غفلت عن واجباتها لأنها لم تعرفها ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾[الأنعام:١٣١] ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ*ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

[الشعراء:٢٠٨،٢٠٩]

فإذا كان هذا شأن الأسوياء من الناس ، فما القول في الضمائر المحجوبة لأسباب طبيعية ؟ لقد ذكرت السنة النبوية هذه النقطة " رُفِعَ القلمُ عن ثلاثٍ عن النائمِ حتى يستيقظَ وعن الصبيِّ حتى يحتلمَ وعن المجنونِ حتى يعقلَ " [صححه الألباني] .

أما في حالة النسيان كظاهرة طبيعية خارجية عن إرادة الإنسان ولا ترجع إلى خطأ منه ، فهل يكون مقبولاً في منطق العدالة القائمة على واقع الأمور أن يكون مسئولاً عن مخالفته للقاعدة . بالطبع لا . فحين دعا المؤمنون ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦]

عرفنا حتى الآن العلاقة التي تربط الفرد المسئول بالقانون . ورأينا أن المسئولية لا تقرر ولا تجد مبررها في نظر القرآن إلا بشروط : أن تذاع شريعة الواجب ، وأن يعرفها كل ذي علاقة بها ، وأن تكون حاضرة في ذهنه وقت إنجازه العمل .

وبالإضافة إلى علاقتنا بالقانون " كعلامة معرفة " لنا علاقة أخرى بالعمل وهي " علاقة إرادة " والعلاقتان يضمهما الضمير الأخلاقي للفرد في وقت واحد . وإن المحكمة التي مهمتها أن تنسب الأعمال إلى الأشخاص لا تستطيع أن تصدر حكماً عادلاً دون أن تأخذ في الحسبان الطريقة التي تقع بها هذه الأعمال وعلاقتها بأشخاصناً .

وبادئ ذي بدء يجب أن نستبعد العمل اللا إرادي من مجال المسئولية، حيث تنقصه الإرادة كعنصر تكويني للشخصية .

إن المسئولية ليست مجرد نسبة العمل إلى إنسان جملة ، وإنما لا بد من وجود صفة مميزة ، وهي أن يترتب على العمل وجوب الثواب أو العقاب . وبالتالي فمن الضروري أن يكون العمل الإرادي متصوراً في ذهن صاحبه بنفس الطريقة وبنفس وجهة النظر التي تصورها عنه المشرع . (١)

هل بمقدور الإنسان أن يزكى نفسه ويطهرها من فجورها ؟

لقد جاء في أقوال الرسول ﷺ ما يثبت التفاوت الفطري في الطباع الخلقية وغيرها :

(1) لمزيد من التفاصيل حول المسئولية راجع كتاب د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " الفصل الخاص بالمسئولية مرجع سابق .

ومنها " النَّاسُ معادِنُ كمعادنِ الفضَّةِ والذَّهبِ . خيارُهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فقِهوا " [متفق عليه] .

وفي قول الرسول ﷺ " النَّاسُ معادِنُ " دليل على فروق الهبات الفطرية الخلقية .

ومنها قوله ﷺ " إنَّ اللهَ تعالى خلق آدمَ مِن قبضةٍ قبضَها من جميعِ الأرضِ ، فجاء بنو آدمَ على قدْرِ الأرضِ ، جاء منهم الأحمرُ ، والأبيَضُ، والأسودُ، وبينَ ذلِكَ، والسَّهلُ، والحزْنُ ، والخبيثُ ، والطيِّبُ ، وبينَ ذلكَ. " [صحيح الترمذي] .

وعن عبدِ اللَّهِ بنَ مسعودٍ قالَ : " إنَّ اللَّهَ قسَّمَ بينَكم أخلاقَكم كما قسَّمَ بينَكم أرزاقَكُم وإنَّ اللَّهَ يؤتي المالَ من يحبُّ ومن لا يحبُّ ولا يؤتي الإيمانَ إلاَّ من أحبَّ فإذا أحبَّ اللَّهُ عبدًا أعطاهُ الإيمانَ فمن ضنَّ بالمالِ أن ينفقَهُ وَهابَ العدوَّ أن يجاهدَهُ واللَّيلَ أن يُكابدَهُ ؛ فليُكثر من قولِ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ واللَّهُ أَكبرُ والحمدُ للَّهِ وسبحانَ اللَّهِ "

[صححه الألباني]

ولدينا حقيقة ثابتة لابد من ملاحظتها في مجال كلِّ تكليف رباني : هي أنَّ الله تبارك وتعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فمسئولية الإنسان تنحصر في نطاق ما يدخل في وسعه، وما يستطيعه من عمل، أما ما هو خارج عن وسع الإنسان واستطاعته، فليس عليه مسئولية نحوه، يضاف إلى ذلك أنَّ نسبة المسئولية تتناسب طردًا وعكسًا مع مقدار الاستطاعة ...

فما كان من الطباع الفطرية قابلاً للتعديل والتبديل، ولو في حدود نسب جزئية، لدخوله تحت سلطان إدارة الإنسان وقدرته، كان خاضعًا

للمسئولية، وداخلاً في إطارها تجاه التكاليف الربانية، وما لم يكن قابلاً للتعديل والتبديل، لخروجه عن سلطان إرادة الإنسان وقدرته، فهو غير داخل في إطار المسؤولية تجاه التكاليف الربانية .

وبناء على ذلك فإننا نقول وفق المفاهيم الدينية: لو لم يكن لدى كلِّ إنسان عاقل قدرة على اكتساب حدٍّ ما من الفضائل الأخلاقية ؛ لما كلفه الله ذلك .

وليس أمر قدرة الإنسان على اكتساب حدٍّ ما من كلِّ فضيلة خلقية بعيدًا عن التصور والفهم، ولكنه بحاجة إلى مقدار مناسب من التأمل والتفكير.

أليست استعدادات الناس لأنواع العلوم المختلفة متفاوتة، فبعضهم أقدر على تعلم الفنون الجميلة من بعض، وبعضهم أقدر على تعلم العلوم العقلية من بعض، وبعضهم أقدر على حفظ التواريخ والحوادث أو حفظ النصوص من بعض؟

إنه ... ما من إنسان عاقل إلا ولديه قدرة على اكتساب مقدار ما من فضائل الأخلاق، وفي حدود هذا المقدار الذي يستطيعه يكون تكليفه، وتكون مسئوليته، ثم في حدوده تكون محاسبته ومجازاته.

إنَّ أسرع الناس استجابة لانفعال الغضب، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقدارًا ما من خلق الحلم، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسئول عن اكتساب ما يستطيعه منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب تنمو نمو أشواك الغاب، فإنَّه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره .

وإن أشد الناس بخلاً وأنانية وحبًّا للتملك، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقدارًا ما من خلق حب العطاء، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسئول عن اكتساب القدر الواجب شرعًا منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب فإنَّه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره .

والمفطور على نسبة كبيرة من الجبن، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقدارًا ما من خلق الشَّجاعَة، قد لا يبلغ به مبلغ المفطور على نسبة عالية من الشَّجاعَة، ولكنه مقدار يكفيه لتحقيق ما يجب عليه فيه أن يكون شجاعًا، وضمن الحدود التي هو مسئول فيها .

وأشد الناس أنانية في تكوينه الفطري، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقدارًا ما من الغيرية والإيثار، قد لا يبلغ فيه مبلغ المفطور على محبة الآخرين، والرغبة بأن يؤثرهم على نفسه، ولكنه مقدار يكفيه لتأدية الحقوق الواجبة عليه تجاه الآخرين .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن أية فضيلة خلقية، باستطاعة أي إنسان عاقل، أن يكتسب منها بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم، المقدار الذي يكفيه لتأدية واجب السلوك الأخلاقي. [1]

كيف يزكي الإنسان نفسه؟

فإذا عدنا إلى سؤال : هل بمقدور الإنسان أن يزكى نفسه ويطهرها من فجورها ؟

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ

والإجابة بالطبع نعم في وسعه وإلا ما كلَّفه الله تعالى بهذا فالله تعالى لا يكلِّف بمستحيل إنما يكون التكليف في إطار الوسع والمستطاع .

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

فباستطاعة الإنسان أن يزكى نفسه من شرورها وبمقدوره أن يحليها بمكارم الأخلاق فإن فعل هذا فقد أفلح .

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس : ٧-١٠] .

أي أفلح وفاز من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دس نفسه في المعاصي .

وكثير من الناس من يعتذر عن سوء خُلُقه بسوء طبعه وأنه هكذا خَلَقَه الله ولا حيلة له في سوء خُلُقه وكأن سوء الخُلُق غريزة تتأبى على المجاهدة والتغيير ، والحقيقة أنه إذا قوى الإيمان في القلب سهل على الإنسان تزكية طبعه الذي جُبِلَ عليه ومجاهدة نفسه الأمارة بالسوء ، أما من ساء خُلُقه فاعلم أنه لا إيمان له ، فبقدر الإيمان يكون حسن الخلق وفي ذلك يقول النبي : " إنَّ أكملَ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا ، وإنَّ حُسْنَ الخلُقِ ليبلغُ درجةَ الصومِ و الصلاةِ " [صحيح البزار] .

فكمال الإيمان يوجب حسن الخلق .

ولو كان حسن الخلق غريزة لا اكتساب فيها ما أمر الرسول ﷺ به فعن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ : " اتَّقِ اللهَ حيثما كنتُ، واتَّبِعِ

السَّيِّئَةَ الحسنةَ تمْحُها ، وخالقِ النَّاسَ بخُلقٍ حسنٍ " [رواه أحمد والترمذى والدارمى] .

إذن الإنسان بمقدوره تغيير خُلُقَه فعن أبي الدَّرداءِ قال " العِلْم بِالتَّعَلُّم وَالحِلْم بِالتَّحَلُّم وَمِنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوَقَّهُ " [صححه الألباني] .

والله تعالى يعين من يجاهد نفسه ويسعى لتغير خُلُقه : " مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا أَوْسَعَ مِنْ الصَّبْر " [صحيح أبي داود] .

قال القرطبي : " الخُلُق جِبِلَّة في نوع الإنسان ، وهم في ذلك متفاوتون، فمن غلب عليه شيء منها إن كان محموداً وإلا فهو مأمور بالمجاهدة فيه حتى يصير محموداً، وكذا إن كان ضعيفا فيرتاض صاحبه حتى يقوى " (١)

وأثبت علم النفس المقارن أن غرائز الإنسان أقل ثباتاً وأكثر قابلية للتغيير عن غرائز الحيوان . وقد باشر الإنسان سلطانه على الحيوانات المتوحشة فصارت بالترويض طيعة مستأنسة . والقرآن من جانبه يقرر قدرة الإنسان المزدوجة على أن يطهر كيانه الجواني أو يفسده ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠] وإذا كانت بعض عناصر الطبع تستعصي على أي تطوير أو تقدم ، فتستبعد من مجال أي إلزام أو مسئولية كأن يكون المرء بطبيعيته حزيناً أو مرحاً ،

(١) نقلاً عن ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١٠ ص ٤٥٩

متشائماً أو متفائلاً فهو ليس مسئولاً عن شذوذه النفساني شأن المريض عن عيوبه الجسمانية .

ومهمة الأديان والشرائع أن تجعل صفات النفس في حالة توازن ووسطية حتى تؤدى دورها المنوط بها في عبادة الله وعمارة الأرض فمثلا الإنفاق إن زاد عن حد الاعتدال صار إسرافاً وتبذيراً وإن قل كان بخلاً وتقتيراً ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان : ٦٧] .

والحَمِيَّة إن زادت عن حد الاعتدال صارت اندفاعاً وتهوراً وإن قلَّت كانت جبناً وضعفاً ... ، يقول الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة : ١٤٣]

فالفضيلة وسط بين رذيلتين . قال مطرف بن عبد الله : الحسنة بين سيئتين.

وقال الشاعر :

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

ولكي يصل الإنسان إلى حسن الخلق الذي جاء الدين به فعليه أن يجاهد نفسه ولا يستسلم لصفات نفسه الدنيئة وبقدر مجاهدته للتخلِّي عن فجور نفسه ومجاهدته للتحلي بالتقوى يكون الأجر والثواب والمنزلة الرفيعة والدرجات ، وبقدر ما يستسلم الإنسان لرغبات نفسه وشهواتها يكون الجزاء والعقاب والمنزلة الوضيعة والدركات .

لقد جمع الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ الحالات الثلاث : الفقر والغنى والكفاف ، فكان الأول أول حالاته ﷺ فقام بواجب ذلك من مجاهدة

النفس ، ثم فتحت عليه الفتوح فصار بذلك في حد الأغنياء فقام بواجب ذلك من بذله لمستحقه والمواساة به والإيثار مع اقتصاره منه على ما يسد ضرورة عياله، وهي صورة الكفاف التي مات عليها ، وهي حالة سليمة من الغنى المُغَطَّى والفقر المؤلم، وأيضاً فصاحبها معدود في الفقراء لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا ؛ بل يجاهد نفسه في الصبر عن القدر الزائد على الكفاف ، فلم يفته من حال الفقر إلا السلامة من قهر الحاجة وذل المسألة . (١)

ويجعل النبي ﷺ صدقة الشحيح الذي يخشى الفقر ويرجو الغنى أعظم أجراً من صدقة الكريم الذي لا يخشى الفقر .

فعن أبى هريرة قال : قال رجل يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً ؟ قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان "

[متفق عليه]

ويجعل الله تعالى من صفات الإبرار أنهم يطعمون الطعام للمساكين والفقراء والأسرى على شدة حبهم له وحاجتهم إليه وما فعلوا هذا وخالفوا هواهم من أجل ثناء أو شكر أو مصلحة يرجونها من الناس إنما فعلوه لوجه الله تعالى .

وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا﴾ [الإنسان : ٨-٩] .

بل يجعل الله تعالى شرط نوال الإنسان البر هو الإنفاق مما يحب ويحرص عليه .

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١١ ص ٢٧٤ .

وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

ويمتدح الله تعالى الأنصار الذي آووا ونصروا وأجاروا المهاجرين وقدموهم على أنفسهم .

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] .

أهناك خلق أرفع من هذا ؟ أهناك خلق أرفع من أن تؤثر أخاك على نفسك فيما أنت محتاج إليه ؟!

ولا توجد نفس بشرية إلا وقد خلقها الله تعالى صالحة لفعل الخير والشر .

وعلى المؤمن الذي ابتلى بصفة ذميمة أن يجاهد هذه الصفة ولا يستسلم لها فيجاهد الجبن بالجهاد في سبيل الله وقول الحق ، ويجاهد البخل بالإكثار من الصدقات ، والأنانية بتقديم يد المساعدة لغيره ففي مجاهدة صفات النفس الذميمة يكون الفلاح والفوز بالجنة .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس : ٩] .

ولن يتغلب الإنسان على فجور نفسه إلا بالإيمان القوى بالله والاعتصام بحبله المتين ، ومخالطة أهل التقوى والصلاح ، ومعرفة أن الدين حسن الخلق ، وأن سوء الخلق طريق جهنم وإن صام وصلى ، أما من استسلم لفجور نفسه ولم يجاهد صفات الشر فيها واتبع هواها، وخالط أهل الفسق والفجور فهذا هو الخاسر الخائب .

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس : ١٠] .

ويجب أن يكون الإنسان متيقظاً لنفسه في كل وقت وحين ، فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات .

المقصود بجهاد النفس ؛ وكيفيته ؛

المقصود بجهاد النفس ، جهاد الصفات المذمومة في النفس الإنسانية ولا يقصد به المعنى العام للنفس الذي يعنى ذات الإنسان التي توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها والتي تنقسم إلى : مطمئنة ، ولوَّامة ، وأمَّارة .

يقول النبي ﷺ : " وأَفْضَلُ الجِهَادِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ " [صحيح الطبرانى] .

إن مجاهدة النفس أفضل من جهاد الكفار والمنافقين والفجار لأن الشيء إنما يفضل ويشرف بشرف ثمرته وثمرة مجاهدة النفس الهداية ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦٩] وكفي به فضلاً وقد أمر اللّه بمجاهدة النفس فقال : ﴿وَجَاهِدُوا في اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج : ٧٨] (1)

أما عن كيفية مجاهدة النفس فيكون بإلزامها ما يخالف هواها فإن كانت مُحِبة للمال فأكثر من الصدقة ، وإن كانت مُحِبة للكبر فخالط الفقراء والمسكين ...

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " ليْس الشديد بالصُّرعةِ إنّما الشّديدُ الذي يملك نفسه عِنْد الغَضَبِ" [متفق عليه] .

المراد بالشديد هنا: شدّ القوّة المعنوية وهي مجاهدة النفس وإمساكها عند الشر ومنازعتها للجوارح للانتقام ممن أغضبها، فإن النفس في حكم

(1) الإمام المناوى " فيض القدير شرح الجامع الصغير " ج ٢ ص ٦٣ .

الأعداء الكثيرين، وغلبتها عما تشتهيه في حكم من هو شديد القوّة في غلبة الجماعة الكثيرين فيما يريدونه منه .

وفيه إشارة إلى أن مجاهدة النفس أشدّ من مجاهدة العدوّ لأنه ﷺ جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أعظم الناس قوّة. وحقيقة الغضب حركة النفس إلى خارج الجسد لإرادة الانتقام. والحديث فيه إرشاد إلى أن من أغضبه أمر وأرادت النفس المبادرة إلى الانتقام ممن أغضبه أن يجاهدها ويمنعها عما طلبت .[1]

ويضرب رسول الله ﷺ لنا الأمثلة في كيفية مغالبة الطبع السيئ ، فعن أبى هريرة أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال : " امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين " [رواه أحمد] .

وعن ربيعة بن كعب قال كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي سل فقلت أسألك مرافقتك في الجنة . قال أو غير ذلك؟ قلت هو ذاك . قال فأعنى على نفسك بكثرة السجود " [رواه مسلم]

" فأعنِّى على نفسك " أي كن لي عوناً في إصلاح نفسك وجعلها طاهرة مستحقة لما تطلب فإني أطلب إصلاح نفسك من الله تعالى وأطلب منك أيضا إصلاحها بكثرة السجود لله فإن السجود كاسر للنفس ومذل لها وأي نفس انكسرت وذلت استحقت الرحمة والله تعالى .

وهناك قصة جميلة عن الصحابي الجليل ثابت بن قيس فقد كان هذا الصحابي مجبولا على بعض الصفات الذميمة مثل جهر الصوت بحضرة النبي ، وحب السيادة على قومه ، وحب الاختيال والفخر ،

(١) الصنعانى" سبل السلام " ج ٤ ص ١٨٣ .

وكان الرجل مؤمناً حقاً فظل يجاهد هذه الصفات حتى تخلص منها وبشره النبي بالجنة وأكرمه الله تعالى فاستشهد في معركة اليمامة وإليك قصته .

قال عطاء الخراساني: حدثتني ابنة ثابت بن قيس قالت: لما نزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي﴾ [الحجرات : ٢] دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ، ففقده النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله ما خبره ، فقال : أنا رجل شديد الصوت، أخاف أن يكون حبط عملي. فقال ﷺ : " لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير" . قال: ثم أنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور﴾ [لقمان: ١٨] فأغلق بابه وطفق يبكي، ففقده النبي ﷺ فأرسل إليه فأخبره، فقال: يا رسول الله، إني أحب الجمال وأحب أن أسود قومي. فقال: " لست منهم بل تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ". قالت: فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة فلما التقوا انكشفوا، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلاً حتى قتلاً " [رواه الطبراني] (١)

أرأيتم كيف أن الصحابي الجليل ثابت بن قيس قد جاهد نفسه ولم يستسلم لصفاتها الذميمة فعاش حميداً ومات شهيداً ؟

إجمال الشروط اللازمة لقيام المسئولية أمام الله

إن الشروط اللازمة والكافية لقيام المسئولية أمام الله وأمام أنفسنا هي أن يكون العمل شخصيّاً ، إراديّاً ، ثم بحرية (أي بدون إكراه) وبوعي كامل ، وعن معرفة بالشرع ؛ فالمسئولية ترتبط ارتباطاً وثيقاً ووظيفيّاً

(١) ورواه القرطبى في تفسيره ج ١٦ ص ٣٠٥ .

بالشخصية الإنسانية ، ولا يستطيع أن يتحملها سوى الإنسان البالغ العاقل ، الواعي بتكاليفها التي يتمثلها أمام نظره وقت أداء العمل . فإذا ما تحدد الشخص ، يكون بعد ذلك مسئولاً عن الأفعال التي يؤديها بإرادته الحرة . لأن الإرادة والحرية مترادفان من الناحية العملية . ولا توجد أية قوة في الطبيعة – ظاهرة أو باطنة – تستطيع أن تحرك أو توقف النشاط الداخلي لإرادة الإنسان .

... وأخيراً فإن المبدأ القرآني للمسئولية ذو نزعة فردية ، يستبعد كل مسئولية موروثة أو جماعية بمعناها الحقيقي .

مراتب الناس في قبولها تهذيب الأخلاق

الناس ليسوا سواء بالنسبة لتهذيب الأخلاق وتزكية النفس إنما هم أنواع ومراتب يبينها لنا أبو حامد الغزالي فيقول : " اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير.

والناس بالنسبة لتهذيب الأخلاق على أربع مراتب :

١– المرتبة الأولى : الإنسان الذي بقي على أصل الفطرة ولم تتسم شهوته باتباع اللذَّات، فهذا سريع القبول للعلاج جداً فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان .

٢– المرتبة الثانية : الإنسان الذي عرف قبح القبيح، ولكنه لم يتعوَّد العمل الصالح بل زُيِّن له سوء عمله فتعاطاه انقياداً لشهواته وإعراضاً

عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه ؛ إذ عليه التخلِّي أولاً عن سوء خلقه واعتياد الفساد، ثمَّ التحلِّي بعد ذلك بحسن الخلق واعتياد الصلاح . وهذا الإنسان يمكنه النهوض بذلك إذا جَدَّ في ذلك وعزم عليه عزماً صادقاً .

٣- المرتبة الثالثة : الإنسان الذي يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المُسْتَحْسَنَة وأنها حقٌ وجميل وتربَّى عليها، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا في حالات نادرة ، وذلك لتضاعف أسباب الضلال.

٤- المرتبة الرابعة : الإنسان الذي يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر وفعل المنكر ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب.

والأول : من هؤلاء جاهل فقط . والثاني: جاهل وضال. والثالث: جاهل وضال وفاسق. والرابع: جاهل وضال وفاسق وشرير. (١)

هل قمع الشهوة والغضب وحب الدنيا بالكلية واجب ؟

وبعض فاسدي الخُلُق يزعمون أن دعاة إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس يريدون قمع الشهوة والغضب وحب الدنيا بالكليَّة مع أن الشهوة والغضب وحب الدنيا فطرة إنسانية وطَبْعٌ بَشَريٌ لا طاقة لإنسانٍ سويٍّ أن يَقْمَعَهَا ويمحُوَها بالكلية ، ويرد الغزالي على هؤلاء فيقول : " قولهم إن الآدمي ما دام حياً فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب

(١) أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " ج ٣ ص ٥٨ بتصرف .

الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجِبلَّة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الجِمَاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك .

ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك عن إمساك المال. وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط .

والمطلوب في صفة الغضب حسن الحَمِيَّة وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً. وبالجملة أن يكون في نفسه قويّاً ومع قوته منقاداً للعقل. ولذلك قال الله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد .

وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكُّوا عن ذلك، إذ قال ﷺ " إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ . أَرْضَى كَمَا يَرْضَى البَشرُ . وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ " [صحيح مسلم] . وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان ﷺ لا يخرجه غضب عن الحق وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٤] ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما

والغالب عليهما ممكن، وهو المراد بتغيير الخُلُق فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش. وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدلَّ أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعاً، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير. وقد أثنى الله تعالى عليه فقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٩] وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى : ﴿يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف:٣١] وقال ﷺ "خيرُ الأمورِ أوساطُها" [وإسناده صحيح موقوف] وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم. قال الله تعالى ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٩] والبخل من عوارض الدنيا، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا، وشرط القلب أن يكون سليماً منهما أي لا يكون ملتفتاً إلى المال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفوا عن الوصفين جميعاً. وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط، فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين. فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير. والشجاعة بين الجبن والتهور.

والعفة بين الشره والجمود. وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور ذميم؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن. (١)

المقصود بذم الدنيا

وإذا كان هناك من يزعم أن حب الدنيا فطرة إنسانية وطبع بشري لا طاقة لإنسانٍ سويٍّ أن يقمعها ويمحوها بالكلية وقد ذكرنا رد الغزالي على هؤلاء فإن هناك من يدعو إلى ترك الدنيا والتَّفَرُّغ للعبادة ويستشهد بالآيات القرآنية الواردة في ذم الدنيا وكذلك الأحاديث الشريفة في تأكيد ذلك .

والدنيا المذمومة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة هي دنيا الكافر الذي آمن بها وكفر بالآخرة ، ودنيا المسلم العاصي الذي انشغل بها عن الآخرة هؤلاء وأولئك الذين يقول الله تعالى فيهم : ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم : ٣] . ﴿إِنَّ هَؤُلاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ [الإنسان : ٢٧] .﴿ كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة : ٢٠ – ٢١] .

وتحدَّث القرآن الكريم في كثير من الآيات عن قِصَر الدنيا وسرعة انقضائها، وبيَّن حقيقتها، وحقارة ما فيها من المتاع، وضرب لذلك الأمثال، وبيَّن أن أَجَل الإنسان فيها محدود لا يتقدَّم أو يتأخَّر.

والمتأمِّل في سِيَر الناس في هذه الحياة الدنيا يجد انغماس الناس في ملذاتها وشهواتها، رغم ما ورد في القرآن الكريم من التحذير من

(١) أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " ج ٣ ص ٥٨ بتصرف .

الاغترار بها وبمتاعها الزائل، قال سبحانه وتعالى: ﴿لا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال عزَّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

والمقصود بحب الدنيا المذموم هو الحب الذي يدفع صاحب الدنيا إلى فعل المحظورات والمنهيات، وترك القربات والطاعات، وفعل الصالحات، فالمذموم أن تكون الدنيا بالقلب لا باليد.

والمقصود بحب الدنيا أن تكون الدنيا مالكة له ومتصرفة فيه، لا هو مالك الدنيا ومتصرف فيها .

وهنا نريد أن نُنَبِّه على أمر مهم قد غفل عنه كثير من الناس، وهو ما يفهمه بعض الناس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وما ورد عن السلف من ذم للدنيا والتزهيد فيها، والإعراض عنها، بأن المقصود من ذلك هو ترك الدنيا والسعي فيها، والإعراض الكلي عنها، والتزهيد بكل ما فيها.

وهذا الفهم غير صحيح؛ لأن المسلم مطالب شرعاً بالاستخلاف في الأرض وعمارتها، والسعي فيها بل كل ما ينفع الأمة ويخدمها، ويخدم البشرية قاطبة في سائر المجالات العلمية والصناعية النافعة.

فالمقصود أن تجعل الدنيا مزرعة تحصد ثمارها في الآخرة، يصرف الدنيا في طاعة الله تعالى، والعمل الصالح، وعمارتها حسب ما أمر الحق تبارك وتعالى من الاستخلاف فيها، بما ينفع الدين والدنيا.

وهذا الفهم القاصر –للأسف الشديد– أن الدنيا ليست من نصيب المؤمن بل هي من نصيب الكافر، وهي دار له، وليست دار للمسلم لعله من أهم الأسباب التي أدَّت إلى تراجع المسلمين، في سائر الميادين اليوم، وفي شتى العلوم، وما أجمل أن يجتمع في المسلم الدين والدنيا، فيكون ذات دين وخلق، وصاحب مال يستعمله وفق مراد ربه وخالقه، فهذا أمر مطلوب مرغوب فيه، مندوب إليه، وبذلك وردت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والدين الإسلامي لا يدعو إلى كبت الشهوات وقتلها، بل إلى ضبطها وتنظيمها، فهو يراعي الفِطَر، وما جُبِلَ عليه الإنسان من حب المال والبنين. (١)

ومن المفاهيم التي اختلطت على كثير من الناس الفرق بين التوكُّل والتواكل فإذا كان التوكُّل من صفات المؤمنين التي يجب التحلِّي بها فإن التواكل من صفات العصاة التي يجب التخلِّي عنها يقول تعالى : في صفات المؤمنين : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢] ويقول تعالى : ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٤٢] والتوكُّل معناه صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح ودفع المضار ، وتفويض الأمور كلها لله ، مع الاعتماد أنه لا يعطي ولا يمنع ، ولا يضر ولا ينفع سواه سبحانه وتعالى ، فالمؤمن يتوكَّل على الله عز وجل ويأخذ في الأسباب المؤدية لإتمام الأعمال دون الاعتماد عليها ، فالأخذ في الأسباب لا ينافي التوكُّل أما من يدعي

(١) خالد حسن محمد البعداني " حب الدنيا وإيثارها على الآخرة " موقع جامعة الإيمان .

التوكُّل على الله تعالى دون السعي والعمل فليس من التوكُّل في شيء وإنما هو اتكال أو تواكل حذرنا النبي ﷺ منه ومن الأسباب المؤدية إليه؛ فما وصل السلف الصالح إلى ما وصولوا إليه إلا بعلو همهم وقوة عزائمهم ، لذلك فإن الأمة اليوم في أمس الحاجة إلى المخلصين من أبنائها الذين يواصلون الليل بالنهار والسير بالسُري ، يقومون على البذل والعطاء في سبيل ارتفاع شأن أمتهم وتقدم أوطانهم ، ويغيرون مجرى الحياة بعلو همتهم وقوة عزيمتهم .

وسوف نعود إلى هذا الموضوع لنزيده تفصيلاً في الفصل الثامن عند حديثنا عن التواكل والسلبية كأحد أسباب تخلف المسلمين في العصر الحديث .

***